الرسالة الحضارية
للأدب العماني

بقلم
مجموعة من الباحثين

تحرير
الأستاذ الدكتور وليد فكري فارس
الدكتور صالح بن سليمان الزهيمي
سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني

ذاكرة عمان

مجموعة من الباحثين
الرسالة الحضارية للأدب العماني

THE CIVILISATIONAL MESSAGE
OF THE OMANI LITERATURE

By
Group of Researchers

Edited by
Prof. Dr. Waleed Fekry Faris
Dr. Saleh Sulaiman Al-Zeheimi
Sultan Mubarak Hamed Al-Shaibani

Scanné avec CamScanner

الرسالة الحضارية

للأدب العماني

بقلم

مجموعة من الباحثين

تحرير

الأستاذ الدكتور وليد فكري فارس

الدكتور صالح بن سليمان الزهيمي

سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ / ٢٠١٧م

الناشر:

ذاكرة عُمان

سلطنة عُمان - مسقط

هاتف: ٠٠٩٦٨ ٩٢٢١١٠١١

البريد الإلكتروني thakeratoman@gmail.com

الموقع www.thaoman.com

توزيع:

مكتبة خزائن الآثار

سلطنة عُمان - بركاء

نقال: ٠٠٩٦٨ ٩٨١٧٧٧٨٩ - ٠٠٩٦٨ ٩٦٦٠٢٣١٩

Scanné avec CamScanner

ـ بينت الدراسة نظرة الشعراء للقيم الإنسانية مثل الكرم والتواضع، والصداقة وغيرها، وكذلك قدمت الدراسة بعض الرؤى التي قدمها الشعراء تجاه المرأة، وصورة المال، ونظرتهم إلى الإنسان.

ـ توصي الدراسة بضرورة الاهتمام بدراسة أدب الثقافة الشعبية دراسة تاريخية وحضارية، لأنه يمثل نظرة ورؤية الإنسان البسيط إلى الأحداث سواء سياسية أو طبيعية.

* * *

البحث العاشر

أَدَب المُلَح والنوادر في كتاب (الإبانة) للعوتبي الصحاري العُماني «التبكيت والتنكيت نموذجين»

بقلم:
د. مولاي علي سليماني
كلية الآداب ـ بني ملال / المملكة المغربية

Scanné avec CamScanner

مقدمة

نروم من خلال هذه الورقة البحثية، التعريف بجهود واحد من علماء عُمان في إثراء الخزانة التراثية لأمته، وحفظ مقومات حضارته، وخدمة لغته العربية. إنه العالم الجليل سَلَمَة بن مُسْلِم العوتبي الصُحاري من خلال موسوعته اللغوية الشاملة، والموسومة بـ«كتاب الإبانة في اللغة العربية».

ونظرا لما لهذا الكتاب من فضل على المتأدبين واللغويين، لما حوى من لطائف في تفسير آيات قرآنية وفرائد في أحاديث نبوية، ونفائس في شرح أبيات شعرية، وأمثال عربية، وكذا لما ضم من أقوال البلغاء، وطرائف الأدباء، وحكم الحكماء؛ ارتأيت الاشتغال على ما حواه بين دفتيه من ملامح أدبية، خاصة أدب التبكيت والتنكيت.

لم يكن بدعا أن تشتمل هذه الموسوعة اللغوية على حظ وفير من الأدب، ذلك لأنها غالبا ما تكون مادة للتعليل والاستشهاد، فضلا عن شخصية الصحاري المرحة في التأليف، كما يظهر ذلك من خلال بعض عناوين كتبه المفقودة خاصة كتابه المسمى «أنس الغرائب في النوادر والأخبار والفكاهات والأسمار» و«كتاب ممتع البلاغة في الوفود والوافدات» وهو كتاب مفقود أيضًا.

وليس يخفى من خلال هذا العنوان اختيار الصحاري الواعي والقاصد لأدب الملح والفكاهات، إذ لم يَرِد في التأليف عرضًا، بل قصد إليه قصدا،

Scanné avec CamScanner

رغبة منه في الترويح عن القارئ، والتخفيف عليه، لأن كتاب «الإبانة» موسوعة لغوية يحتاج قارئها إلى غير قليل من الجهد للفهم والاستيعاب، لذلك ضمنها قسطا من أدب الملح والفكاهات للترويح عن القارئ.

ولقد قصد من خلال أدب الملَح إلى تحقيق شيء من الأنس، بما جمع فيه من الطُرَف والأخبار المضحكة، والنوادر الشاردة، والأخبار الشاذة. وملامح هذا الأدب تمثل خطا عريضا في مصادر الأدب واللغة العربيين، كما يظهر ذلك واضحا في عناوين مشابهة، مثل كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان الأندلسي (ت ٤٠٠هـ)، وكتاب «التطفيل وحكايات الطفيليين ونوادرهم وأخبارهم» للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، و«أخبار الظراف والمتماجنين» لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، وكتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» لبهاء الدين الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ أو ٨٥٢هـ) وغيرها كثير.

كل ما أوردناه يؤكد حقيقة مفادها: رسوخ أدب الملح والطرائف في أدبنا العربي سواء تعلق الأمر بأدب التبكيت أو بأدب التنكيت حيث الجامع بينهما هو الإضحاك والإمتاع.

١ ـ العوتبي: دفاعا عن أدباء عُمان وعلمائها ولغتها

ولقد حرص العوتبي على الإشادة بعلماء عُمان وأدبائها وخطبائها[1] قائلا: «ومن أهل عُمان الفصحاء والخطباء والبلغاء والشعراء الذين يُعرفون ولا يُجهلون كثير غير قليل، ولهم أخبار شاهدة وأحاديث سائرة»[2].

ولقد أشار العوتبي إلى تمكن أهل عُمان من البيان والبلاغة فضلا عن الأدب شعرا ونثرا: «قال عمرو بن بحر: لربما سمعت مَن لا علم له يقول:

(١) تنظر الإبانة ٣٥/١ ـ ٣٦.
(٢) الإبانة ٣١/١.

ومن أين لأهل عُمان البيان؟ وهل يعدون لبلدة واحدة من الخطباء والبلغاء ما يعدون لأهل عُمان؟ منهم مصقلة بن رقبة، أخطب الناس قائما وجالسا ومنافسا ومجيبا ومبتدئا. ثم ابنه من بعده كرب بن مصقلة: ولهما خطبتا العرب: العجوز في الجاهلية، والعذراء في الإسلام»[1].

وبعد أن ذكر علماء عُمان إجمالا في موطن، حرص على أن يذكر بعضها بتفصيل في موطن آخر وإن لم يكن قصده من التأليف ذلك، يقول: «ومن أهل عُمان: الخليل بن أحمد الأزدي، وكان خرج إلى البصرة وقام بها، فنسب إليها، وهو صاحب كتاب العين الذي هو إمام الكتب في اللغة، وما سبقه إلى تأليف مثله أحد، وإليه يتحاكم أهل العلم والأدب فيما يختلفون فيه من اللغة، فيرضون به ويسلمون له»[2]. ومن علماء عُمان كذلك: «أبو بكر بن دريد الأزدي، وهو صاحب كتاب الجمهرة، وله مصنفات كتب عدة، وهو الخطيب المذكور، والشاعر المشهور والفصيح الذي يقف عن كلامه البلغاء، ويعجز عن آدابه الأدباء، وتستعير منه الفصحاء، وتستعين بكلامه الخطباء، وهو خطيب في شعره، ومصقع في خطبه، وقدوة في أدبه، وحكيم في نثره، ومجيد في شعره، لا زيادة عليه في فنون العلوم والآداب، وليس هذا مما وضعت له هذا الكتاب، ولكن يذكر الشيء بمثله»[3].

والأكثر من ذلك كله تأكيد الصحاري فصاحة لغة عُمان، فضلا عن كونها موجودة في القرآن وفي الأشعار، ومثل لذلك الأمثلة[4].

(١) الإبانة ٣٤/١.
(٢) الإبانة ٣٧/١.
(٣) الإبانة ٤٢٠/١.
(٤) الإبانة ٣٦/١.

Scanné avec CamScanner

٢ ـ أدب الملح والنوادر عند العوتبي:

لقد كان العوتبي يدرك أن الكتابة لا تكون ذات قيمة إلا إذا وجدت من يقبل عليها قراءة وتحليلا ونقدا أو حتى إعجابا، لذلك، حذا حذو المتقدمين من أرباب صناعة الأدب وسدنتها، وسار على نهجهم، إذ كان من شأن العلماء المتقدمين التنويع في طرائق كتاباتهم، وجعلها مستطرفة بالأحاديث المستظرفة، وذلك وسم يكاد يعم مصادر الأدب واللغة في تراثنا العربي القديم، سواء أكان الكاتب عالما أو زاهدا أو فقيها، فليس ذلك يعتبر منقصة تتضع به مصنفات العلماء وتصانيفهم، فها هو الجاحظ وهو قطب البلاغيين وإمام البيانيين وقائد نحلة المعتزلة لا يستنكف من أن يستغرق في الطرف والنوادر، فكان لا يجد غضاضة في ذلك أبدا، وانظر في كتابه «البيان والتبين» ستجد أخبارا للسخفاء والنوكى وللسفهاء والحمقى، مما لا يدع عندك مجالا للشك بأن الجاحظ قد قصد إلى ذلك قصدا، وها هو ابن سيده في معجمه الضخم لا يتورع في الخوض في ما قد يحسبه من يضيق فهمه عن الأدب أن ذلك خارما من خوارم مروءة العلماء، والحال أنه رحمه الله كان يتقصى اللغة ويجتهد في فرائدها وفوائدها من رحم الفكاهة والطرفة. وكذلك صنع ابن قتيبة في «عيون الأخبار» والمبرد في «الكامل». قال الجاحظ رحمه الله: «وأما أحاديث القصص والرقة فإني لم أر أحدا يعيب ذلك»(١).

لذلك فقد «كان العوتبي في حل من أمره من أن يكتب أو يحكي أو ينقل الفكاهات بما فيها من النوادر والنكات في كتابه الإبانة، خصوصا وهو الفقيه الإباضي المذهب المحبوبي المنهج، ورغم منطقية هذا الطرح، فإن العوتبي كتب ونقل وروى الفكاهة بجميع أنواعها المعاصرة»(٢)، ولا غرابة في ذلك فقد

(١) البيان والتبيين، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون دار الجيل بيروت ج ١٠٥.

(٢) أثر الفكاهة في كتاب الإبانة للعوتبي، سيد إسماعيل سلسلة أعمال الندوات والمؤامرات ٧ المجلد الثاني منشورات جامعة آل البيت إعداد عليان عبد الفتاح الجلودي وسعيد جبر أبو خضر ٢٠٠٩ ص ٥٨٣.

سبقه إلى ذلك من أخذ عنهم من العلماء الأدباء، فها هو المبرد النحوي يخصص بابا في «الكامل» في إراحة القارئ وصرف الملل عنه، يقول: «نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئا لتكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف، ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس»(١).

أ ـ أدب التبكيت:

البتك لغة أن «تقبض على شعر وريش ونحو ذلك فتجذبه إليك فينبتك من أصله، أي فينقطع وينتتف، فكل طائفة من ذلك قاسمها بتكة.

قال زهير:

حتى إذا ما هوت كف الغلام لها ... طارت وفي كفها من ريشها بتك

أي قطع. والبتك قطع الأذن من أصلها. وفي القرآن: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: ١١٩]. «والباتك السيف القاطع»(٢). «وبتكه يبتكه بتكا قطعه»(٣)

وللتبكيت في الأدب وجوه، فقد يكون شعرا، ويكون القصد منه إفحام المخاطب بكلام صارم قاطع لاذع جامع بين التعنيف في اللفظ والسخرية اللاذعة المبطنة، لأجل التبكيت والقطع، من ذلك قول «هند بنت عتبة امرأة الحجاج بن يوسف:

وما هند إلا مهرة عربية ... سليلة أفراس تحللها بغل

فإن نتجت مهرا كريما فبالحرى ... وإن كان إقرافا فمن قبل الفحل(٤)

(١) الكامل في اللغة والأدب، المبرد النحوي، تحقيق تغاريد بيضون ونعيم زوزور، دار الكتب العلمية ط ٢ لبنان ١٩٨٩ ج ٢ ص ٥.

(٢) الإبانة ٢/٢٩٩.

(٣) المخصص، ابن سيده الأندلسي، تحقيق عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى لبنان ٢٠٠٥ ج ٦ ص ٤٧.

(٤) في البيت إقواء، ويروى: فما أنجب الفحل، ويروى: فجاء به الفحل.

Scanné avec CamScanner

فلما بلغ الحجاج قولُها أمر ابن القريــة أن يطلقها بكلمتين، وحمله إليها مائة ألف، فلما أتاها قال لها يا هند كنت فبنت، وأتاها بالمائة، فقالت: ما فرحنا إذ كان، ولا حزنا إذْ بان. ويروى: ما فرحنا إذ كنا ولا حزنا إذ بِنَّا، المائة ألف لك بشارة»[1].

يستفاد من هذا الشاهد أن التبكيت تم بوجوه:

الأول: إن هند هي التي بتكت الحجاج بلاذع القول، حيث أشادت بأصلها، بأســلوب الحصر، على نحو من التحبيب والفخر بالأصول قبل الفروع، وفي المقابل سلحت على زوجها ولسعته، فإذا كانت هي عربية الأصل حقيقة، ومهرة استعارة، فالحجاج بغل دفعة واحدة، وبلا مقدمات، وقد تولست بالتشبيه البليغ لما يفيده من التطابق بين المشبه والمشبه به إلى حد التماهي، لتبكيت الحجاج وشل حجته، وقصفته حقا بعنيف قول، وأخصر عبارة.

الثاني: زيادة في التبكيت فإنها تفترض في نسبها خلوصا وفي نسبه شائبة، فإن كان المولود كريما فمنها يقينا، وإن كان لئيما فمن أبيه قطعا.

الثالث: فطنة هند في اختيار الألفاظ اللاذعة، فقولها (إن كان إقرافا) صعقة أخرى للحجاج، لأن الإقراف هو زواج من ليس عربيًّا بعربية.

الرابع: إحساس الحجاج بالإهانة جعله يحسم بأن يرد الصاع صاعين فعلا لا قولا، فأمر ابن القرية أن يطلقها بكلمتين إمعانا منه في إذلالها، لكن هيهات أن يصيبها ما أصابه من القول الجارح.

الخامس: في قول ابن القرية حكاية عن الحجاج: «كُنْتِ فَبِنْتِ»، وردها عليه بالقول: «ما فرحنا إذ كان، ولا حزنا إذْ بان» ضربة موجعة أخرى للحجاج، فأما قوله بصيغة الإفراد (كنت فبنت) فلا إلماح في العبــارة إلى ما كان بينهما من

(١) الإبانة ٣/٤٤٦ ـ ٤٤٧.

زواج وألفة وتعايش حتى تعض أناملها غيضا على فقدانه، في حين أن ردها كان (ما فرحنا) بنون التعظيم إعلاء من شأن الذات المتكلمة، وليس قطعا في ذلك إلماع للحجاج، وفي الآن نفسه نفيها للفرح نفيا قاطعا زمان اقترانها به، فضلا عن المفارقة اللاذعة في توظيف الضمائــر، فجمعت حين كانت هي المتكلمة، وأفردت حين أدارت دفت الحديث إليه. فلله درها من أديبة متقنة لأساليب التبكيت.

ونماذج أدب التبكيت في كتاب الإبانة كثيرة، فمن المرويات نورد ما يلي: «قال أبو عكرمة: كان عمر إذا سمع رجلا يخطئ قبَّح عليه، وإذا أصابه يلحن ضربه بالدِّرة. ويروى أن كاتبا لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر كتابا فلحن فيه. فكتب عمــر إلى أبي موســى: أن اضــرب الكاتب ســوطا واعزله عن عملك»[1]. فالقصد من هذه الرواية التشديد على تقويم اللسان، وإصلاحه مما شابه من فاسد اللحن.

ولمزيد بيان نورد قصة للخليل أوردها الصحاري في كتابه: «قال الخليل بن أحمد: دخلتُ على سليمان بن علي، فرأيته يلحن اللحنة بعد اللحنة، فقلت: أيها الســيد، أبوك علي الســجاد، وعمك عبد الله الحَبْر، والعباس بن عبد المطلب جدك، وما ولدك إلا خطيب أو فصيح، وأرى في كلامك ســقطا. قال: أقليلا أم كثيرا؟ فقلت: بك بَقَل. قال: إنك لا تسمعه مني أبدا بعدها. فقال: فما أذن لأحدٍ سنةً. ثم دخلتُ عليه، فوجدته أفصح الأولين والآخرين»[2].

ليس يخفى ما في هذه القصة من تبكيت وتقريع. فقد شــنع الخليل على سليمان بن علي كثرة لحنه، وذلك بأن نسبه إلى فصحاء مشهود لهم بها، وهم

(١) الإبانة ١/١٤.
(٢) الإبانة ١/١٧.

Scanné avec CamScanner

ليسوا إلا أقاربه، فذكر أباه علي السجاد، وعمه عبد الله الحبر، وجده العباس بن عبد المطلب، فكأنه يقول له: حري بمن كان منتسبا لهذه الأصول ألا يكون إلا فصيحا. فقد كنت معذورا لو كنت منحدرا من غير هؤلاء، أما وأنت فرع عنهم، فليس هذا بمثلك يليق. وهذا أشبه في اللوم بقوله تعالى حكاية عن قوم مريم عليها السلام: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨] فقد نُسبت إلى الصلاح أخا وأبا وأما، فكيف لها أن تلد بغير بعل، وهذا أشد في اللوم والتبكيت.

ومما أورده الصحاري أيضًا قوله: «عن ابن عمر أن رجلا أتاه فقال له: يا أبا عبد الرحمٰن، ما تقول في رجل مات وترك أبوه وأخوه؟ فقال ابن عمر: ويحك، أباه وأخاه. فقال الرجل: فما لأباه وأخاه؟ قال ابن عمر: لأبيه وأخيه. قال الرجل: قد قلتُ فأبيتَ. قال ابن عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما فاتك من أدبك أضر بك مما فاتك من ميراثك»[١].

إن ما في هذا الشاهد من تعنيف لفظي من ابن عمر للرجل اللاحن ظاهر واضح، كما في قوله (ويحك) وقوله (إنا لله وإنا إليه راجعون) إفادة لقلقه من لحن الرجل وقلة فهمه. وتلخيصا لهذا الموقف التواصلي المتشنج قال ابن عمر: (ما فاتك من أدبك أضر بك مما فاتك من ميراثك) فجمع فيه ملمحين: الأول للتبكيت والثاني للتنكيت.

وقريب من هذا أن «دخل رجلان على سليمان بن عبد الملك فقال أحدهما: مات أبانا، رَحِمَهُ، فوثب أخينا على ميراثنا من أبينا فرضينا بك لتنصفنا منه. فقال سليمان: لا حفظ الله أخاك ولا رحم أباك، ولا رد مالك، اخرج عني، فوالله ما أدري أمن لحنك أعجب أم (من...) له»[٢].

(١) الإبانة ١/١٩.
(٢) نفسه ١/١٧.

ومن ذلك شاهد آخر أورده العوتبي جاء فيه «دخل رجل على عمر بن عبد العزيز، فتكلم وأكثر. فقال شرطي على رأسه: قد أوذيت الأمير. فقال عمر: أنت والله أشد أذى لي منه»[١].

تظهر شدة التشابه بين ما أورده العوتبي من شواهد في أدب التبكيت والتهكم من اللحانين بذلك الذي أورده الجاحظ للغاية نفسها في كتابه (البيان والتبيين)[٢].

ومن لطيف شواهد التبكيت الأدبية في كتاب الإبانة قول الصحاري: «وقيل إن سائلا سأل أبا يوسف عن رجل حلف أن امرأته طالق أنْ دخلت الدار، وآخر حلف أنَّ امرأته طالق إنْ دخلت الدار. فقال: أيتها دخلت فقد حنث الحالف. قال: وكان الكسائي حاضرا فقال: أوليس الخرس أحسن من هذا الجواب؟ وسمع أبو يوسف مقالته فشكاه إلى الرشيد فقال: صدق الكسائي، الخرس أحسن من اللحن، أما علمت أن من خفض قد حلف على شيء يكون في المستقبل؟ فمتى دخلت امرأته الدار حنث، والآخر إنما حلف يمينه بفعل ماض، فإن كانت امرأته دخلت الدار قبل حلفه عليها فقد طلُقَت، وإن لم تكن دخلت لم تطلق. قال وكانت هذه المسألة حدت أبا يوسف على أن طلب النحو وتعلمه»[٣].

فأي تبكيت أكثر من قول الكسائي لأبي يوسف (أوليس الخرس أحسن من هذا الجواب؟) فقد أزرى على رأيه إزراء لعدم تمييزه بين عبارتين، وما زاد الموقف إحراجا هو تعضيد الرشيد لرأي الكسائي، إذ كان أبو يوسف يحسب أن الرشيد سينتصر له، لكن هيهات هيهات، فقد زرى عليه زريا هو كذلك فقال

(١) الإبانة ١/١٧.
(٢) البيان والتبيين ج ٢، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٣) الإبانة ١/٢٠.

Scanné avec CamScanner

مكررا مقررا رأي الكسائي فيه (صدق الكسائي، الخرس أحسن من اللحن). وما يدل على أن هذا التقريع قد ترك أثرا في نفس أبي يوسف، وأشعره بتبكيت الضمير هو طلبه للنحو وسعيه في تعلمه.

إننا عندما ننعم النظر في شواهد التبكيت الأدبية التي أوردنا ندرك حقا أن العوتبي الصحاري رَحِمَهُ اللَّهُ، سار على نهج الأدباء الذين سبقوه، احتفاء بأدب التبكيت، ذلك الأدب الذي تنتجه سياقات تواصلية مخصوصة، تكون عبارة عن مواقف مقلقة مضحكة، تحمل المبكَّت على التعريض ببلادة المبكَّت أو لحنه أو جهله حينا، أو التصريح أخرى مع وخز في العبارة وكبت بالحجة.

لسنا نشك في ثقافة العوتبي الموسوعية كما ينكشف ذلك من موسوعته اللغوية (الإبانة)، وموسوعته الفقهية (الضياء) فضلا عن علمه بالأنساب، إلا أنه كان أشد تأثرا بابن بلده الخليل بن أحمد الفراهيدي خاصة عندما يتعلق الأمر بمسألة لغوية، إذ شكل له رافدا معرفيا ملهِما، أما ابن قتيبة فقد كان «حضوره في كتاب الإبانة لافتا متكررا، بل لعله أغزر رافد معرفي للعوتبي في تشييد كتاب الإبانة»[1].

ويضاف إلى العالمين المذكورين إمام البيانيين وقدوة البلاغيين أبو عمرو الجاحظ، فمن أمعن النظر في كتاب العوتبي وجد أثرا للجاحظ فيه كبيرا، خاصة فيما يتعلق بروح الدعابة والنكتة، وعرض بعض الملح والنوادر وإن كانت أحيانا تصل إلى حد التفحش في الإجابات. ولعل المبرد علل ما يكون من ذلك في كتب الأدب حين قال: «قال أبو الدرداء رَحِمَهُ اللَّهُ إني لأستجم نفسي بالشيء من الباطل ليكون أقوى لها على الحق»[2].

(١) أثر الفكاهة في كتاب الإبانة للعوتبي، سيد إسماعيل ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠.
(٢) الكامل ج ٢ ص ٥.

إن ما جعل (الإبانة) كتابا ذا قيمة علمية كبيرة هو أخذه عن أرباب صناعة الأدب، كما قرر ذلك العلامة ابن خلدون قائلا: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين وهي كتاب الكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذا[1] الأربعة فتبع لها وفروع منها»[2].

ب ـ أدب التنكيت:

هو أدب يقوم على النادرة والنكتة، الغرض منه إضحاك المتلقي وحمله على الإقبال على المقروء باشتهاء ونهم، وبقصد دفع السآمة والملل عن القارئ، ولعمري هذا خط واضح المعالم في مصنفات الأدب، قال ابن عبد ربه: «ونحن قائلون في كتابنا هذا من الفكاهات والملح التي هي نزهة النفس، وربيع القلب، ومرتع السمع، ومجلب الراحة، ومعدن السرور»[3]، واستدل على ذلك بقول لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، جاء فيه: «أجِمُّوا هذه القلوب، والتمسوا لها طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان، والنفس مؤثرة للهوى، آخذة بالهوينى، جانحة إلى اللهو، أمارة بالسوء، مستوطنة للعجز، طالبة للراحة، نافرة عن العمل، فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها»[4].

وفي كتاب الإبانة كم هائل من الأمثال يمكن اعتبارها مثالا لأدب التنكيت، حيث لا يستنكف الصحاري من أن يثبتها في كتابه ويشرحها على ما فيها أحيانا من إشارات مضحكة، وهذا دليل على إحاطته بأدب الأمثال،

(١) هكذا وردت في الكتاب وأحسب الصواب (هذه).
(٢) الكامل، ج ٢ ص ٤.
(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة ١٩٨٧ ج ٨ ص ٩٠.
(٤) نفسه ص ٩٠.

Scanné avec CamScanner

ونزداد يقينا من ثقافة الصحاري الأدبية والموسوعية عندما نعلم أنه ألف كتابا في الأمثال ذكره في كتابه الأنساب، ووسمه بـ«كتاب في الحكم والأمثال» لكنه مفقود للأسف.

من بين ما أورده الصحاري من مُلَح قوله في شرح المثل (سكت ألفا ونطق خلفا): «هو مثل يضرب للرجل يطيل الصمت، فإذا تكلم تكلم بالخطأ. يعنون به أنه سكت عن ألف كلمة، ثم تكلم بالخلْف عن الكلام. والخلف الرديء من القول. قال ابن الأعرابي: كان أعرابي جالسا مع قوم فحبق حبقة فتشور، وأشار بإبهامه نحو إسته وقال: إنها خلْف نطقت خلْفا. فسمى صوت ذلك الموضع نطقا خلفا»[1]. فلا يمكنك أن تقرأ هذا الشرح من غير أن تضحك، ولعلك ربما تتشور في قوله على الملأ.

ومن ذلك ما قال في شرحه المثل (أجبن من صافر) قال: «الصافر هو الرجل الذي يصفر للفاجرة، فهو يخاف كل شيء ويفزعه. قال ذو الرمة:

أرجو لكم أن تكونوا في إخائكم ... كلبا كورهاء تقلي كل صفار
لما أجابت صفيرا كان آتيها ... من قابسٍ سبط الوجعاء بالنار

قالوا: معنى هذا أن امرأة كان يصفر لها رجل للفجور فتأتيه إذا سمعت صفيره، ففطن زوجها لذلك، فصفر لها فجاءته، وهي ترى أنه الرجل، فشيطها بميسم معه، فلما صفر ذلك الرجل قالت: قد قلينا كل صفار. أي قلينا كل زان وعففنا»[2].

ومن أدب النكتة ما أورده العوتبي من الخبر الطريف في شرح لفظة النطاق قائلا: «والنطاق خيط تشد به المرأة في وسطها للمهنة، قال أبو كبير الهذلي:

حملت به في ليلة مزؤودة ... كرها وعقد نطاقها لم يحلل

(١) الإبانة ١ ـ ٢٦.
(٢) الإبانة ١/٣٥٣ ـ ٣٥٤.

يقول: باشرها بعلها غصبا، وهي مرعوبة غير متأهبة للمباشرة فتحل نطاقها وتأتي فراشها، فجاء المولود شهما مذكرا لا حظ للتأنيث فيه. ويقال إذا أردت نجابة ولدك، فأغضب أمه واغشها»[1].

ومن ملح الصبيان ما رواه العوتبي قائلا: «وقيل لصبي يلعب على بابهم: من أبوك يا غلام؟ وكان اسم أبيه كلبا، فقال: وَوْ وَوْ وَوْ. وسماه بصوته لأن الذي تهيأ للكلب وَوْ، وعف وأشباه ذلك»[2].

ومن المحزن المضحك أن العرب كانت تعالج الإبل التي أصابها عر بما يثير العجب، لغرابته، إذ «كانوا إذا أصاب إبلهم العُرّ كووا السليم ليذهب العر عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم، وكانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبلغت الألف فقؤوا عين الفحل، فإن زادت الإبل على الألف فقؤوا عينه الأخرى، فذلك المفقأ والمعمى اللذان سمعت بهما. وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف والغارة»[3].

وفي ذلك قال النابغة:

أخذت علي ذنبه وتركته ... كذا العَرُّ يكوى غيره وهو راتع[4]

وأشد من هذا أن يعرض العوتبي أقوال العرب وأدبهم على ما فيه من تفحش، كما صنع في شرحه لمعنى (رجل حلقي)، قائلا: «هو الذي في ذكره فساد لا يصل من أجله إلى أن ينكح لكنه ينكح، وهو مأخوذ من قول العرب: الحمار يحْلَق حلقا، إذا أصابه داء في قضيبه فربما خصي فيبرأ، وربما مات، قال:

خصيتك يا ابن حمزة بالقوافي ... كما يخصى من الحلق الحمار[5]

(١) الإبانة ٢٦/١.
(٢) الإبانة ٤٢٠/١.
(٣) الإبانة ٤١٣/١.
(٤) الإبانة ٣٠٩/٣.
(٥) الإبانة ٥/٣.

Scanné avec CamScanner

ومن الأخبار المضحكة ما أورده العوتبي في بيان معنى الشعوذة قائلا: «وبلغنا أنه كان على عهد الحجاج رجل يقال له يوسف، منسوب إلى الشعوذة، فقال الحجاج من ظفر به فيقتله، فأتي به فأمر بضربه فلما أخذته السياط، وقعت السياط بظهر الحجاج، فكف عنه، فقال يوسف: أصلح الله الأمير؛ إأذن لي فأشعوذ بين يديك وتنظر إلى عجائب، ثم شأنك إن تقتل فبذنب، وإن تعف فأنت أولى بالعفو. قال اعمل ما شئت. فدعا بطست فيها ماء، ثم قال: إأذن لي فأسبح فيها. قال نعم، فوثب في الطست، فغاص غوصة فذهب فلم ير بعد ذلك، فهو المشعوذ. قال الليث: لقيت رجلا بالبصرة يحدث الناس، فقلت من أنت؟ قال أنا فلان ابن سليمان الطيار. فقلت: من كان سليمان؟ فقال شعوذي الحجاج»[1].

فالحجاج على ذكائه وبطشه، أفلت منه المشعوذ، وما يزال ابن سليمان الطيار يحدث الناس ويضحك عليهم كما فعل بالحجاج.

والملح في أدبنا العربي متأصلة متجذرة، ولقد كان أهل الأدب يقصدون إليها قصدا لينالوا بها منزلة عند الملوك وأصحاب السلطان، ولله در الأصمعي حين قال: «وصلت بالعلم، ونلت بالملح»[2].

* * *

(١) الإبانة ٣٠٥/٣.

(٢) البيان والتبيين ج١ ص١٩٩.

خاتمة

لقد كان وكدنا في هذا البحث أن نبين الملامح الأدبية في كتاب الإبانة، وهو وإن كان الصحاري قد وضعه للغة إلا أنه لم يكن يخلو من ملامح أدبية ارتأينا أن نكشف عنها، وإن لم تكن بغزارة المادة اللغوية التي من أجلها وضع الكتاب، وقد كان مدار اشتغالنا هو بيان أدب الملح والنوادر والأخبار المضحكة، على أن وكدنا كان منصبا حول بيان نوعين من أدب الملح هما أدب التبكيت وأدب التنكيت، وكلاهما وارد في الكتاب بقصد الإمتاع والمؤانسة، وبغرض الترويح على القارئ، لئلا تمل نفسه وتكل بثقل المادة اللغوية الهائلة التي احتواها الكتاب.

ولقد خلصنا إلى النتائج الآتية:

- إن أهمية الكتاب الأدبية تكمن في كونه نهل في معين أصول تلك الصناعة التي حصرها ابن خلدون في أربعة مصادر: البيان والتبين، والكامل وأدب الكاتب، والأمالي.
- إن كتاب الإبانة ليس موسوعة لغوية فحسب، بل أيضًا فيه مادة أدبية غزيرة تكشف عن إحاطة الرجل بالأدب شعره ونثره.
- إن أدب الملح بنوعيه: التبكيت والتنكيت أدب قصد إليه المؤلف قصدا، ولم يظهر في كتابه عرضا، ولا كان حشوا وكلاما زائدا، وإنما خطط له صاحبه جريا على هدي الأدباء العلماء المتقدمين - ولم يمنعه مذهبه ولا تدينه من أن يخوض فيه لأنه غير معيب كما ذكر ذلك الجاحظ - لمقاصد جليلة وأغراض خطيرة تكلم عنها أدباء كبار كالجاحظ والمبرد وابن عبد ربه، نجملها في الآتي:

Scanné avec CamScanner

أ ـ الترويح عن النفس بشيء من الهزل لتتقوى به على الجد.

ب ـ استراحة للقارئ، لأن خلط الجد بشيء يسير من الهزل يستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس.

ت ـ الفكاهات والملح قريبة من النفوس، لائطة بالقلوب، جبل الإنسان على طلبها.

ث ـ لقد درج الأدباء على أدب الملح والفكاهات لأن ذلك كان يوصلهم إلى ذوي العطايا والهبات من الملوك وأصحاب الرياسات، لذلك كان هذا النوع من الأدب متأصلا في ثقافتنا، فلم يكن بدعا على الصحاري الإتيان به.

وأخيرا لا يسعني إلا التنويه بقيمة هذا الكتاب اللغوية والأدبية، وأدعو إلى إدخاله إلى المقررات الجامعية لتعريف الطلاب به، ولينال حظه من الدراسة والبحث.

وعلى الله قصد السبيل، والحمد لله رب العالمين.

* * *

مصادر البحث ومراجعه

- القرآن الكريم.
- الإبانة في اللغة العربية الشريفة وإبانة الكلام، سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري تحقيق عبد الكريم خليفة ونصرت عبد الرحمٰن وصلاح جرار ومحمد حسن عواد وحاسر أبو صفية، الطبعة الأولى ١٩٩٩.
- أثر الفكاهة في كتاب الإبانة للعوتبي، سيد إسماعيل سلسلة أعمال الندوات والمؤامرات ٧ المجلد الثاني منشورات جامعة آل البيت إعداد عليان عبد الفتاح الجلودي وسعيد جبر أبو خضر ٢٠٠٩م.
- البيان والتبيين، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون دار الجيل بيروت.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.
- الكامل في اللغة والأدب، المبرد النحوي، تحقيق تغاريد بيضون ونعيم زوزور، دار الكتب العلمية ط ٢ لبنان ١٩٨٩م.
- المخصص، ابن سيده الأندلسي، تحقيق عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى لبنان ٢٠٠٥م.

* * *